خولة بنت الأزور الكندى

بقلم . م . أسعد طلس

فى السنة الثالثة عشرة للهجرة يعزم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتح الشام فيجمع الصحابة ويخطبهم قائلاً « . . . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عول أن يصرف همته الى الشام فقبضه الله إليه ، واختار له ما لديه ، ألا وإنى عازم أن أوجه أبطال المسلمين الى الشام بأهليهم وما لهم ، فماذا ترون ؟ » فلا يرى من المسلمين إلا ارتياحاً ، فيعمد الى بقية الأمصار الاسلامية من أطراف الجزيرة فيكتب إليهم بالأمر ، ويستنفرهم خفافاً وثقالاً ليجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وما هى إلا أسابيع حتى تقدم عليه الوفود فى العدد العديد ، والذرارى والأموال ، فيخرج إليهم المسلمون مستقبلين بوجوه باسمة ، وقلوب جذلانة ، ويعم المدينة روح مبارك ، وكيف لا والمسلمون يجتمعون كلهم فى صعيد واحد لنصرة دين الله ، ورفعة شأو التوحيد .

ها هى ذى حمير بدروعها الدوادية ، وسيوفها الهندية ، تزحف بآلافها المؤلفة وعلى رأسها زعيمها ذو الكلاع الحميرى ، يكبر ويهلل والقوم من ورائه يكبرون ويهللون . وها هى ذى كتائب مذحج وطىء والأزد وكنانة بخيولها العتيقة ، ورماحها الدقيقة ، تؤم عاصمة الاسلام ، فما أن يراهم أبو بكر حتى يخر لله شاكراً أن ألف من هذه القبائل المتنافرة أمة واحدة ، نزع الله ما فى قلوبها من غل ، وجعلهم بنعمته اخواناً ينصرون دينه وينشرون رسالة نبيه . فى أطراف المعمورة .

اجتمعت هذه الآلاف العديدة فعسكرت خارج المدينة تنتظر إشارة أبى بكر خليفة رسول الله ، وما أن تكاملت الوفود حتى خرج إليهم رضوان الله عليه فى جمهرة من كبار الصحابة ، فلما أن أشرف عليهم من على ورآهم قد ملأوا السهول والجبال حتى حمد الله وقال « اللهم أنزل عليهم النصر وأيدهم ، ولا تسلمهم الى عدوك إنك على كل شىء قدير »

ثم أمر الأمراء وعقد الألوية ، وأوصاهم وصيته الخالدة وفيها يقول « . . . شاورهم فى الأمر ، واستعمل العدل ، فانه لا أفلح قوم ظلموا ، وإذ لقيتم العدو فلا تولوهم الأدبار ، وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ، ولا تغدروا اذا عاهدتم . وستمرون على قوم فى الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترهبوا فى الله فلا تهدموا صوامعهم ودعوهم . . . » فأمن القوم وهللوا فدوت بأصواتهم الجبال ، ثم ساروا على يمن الله ، وسار الخليفة وكبار الصحابة يودعونهم حتى ثنية الوداع .

سار القوم وكلهم إيمان وصبر ، وعزيمة وحزم ، وطاعة لأمرائهم ، وجلد على السير ، وتواد وتعاطف .

كان فى هذا القوم شاب كندى ما جاوز العقد الثالث ، جميل المحيا ، عالم بفنون الحرب ، فاتك فى النزال ، قوى الايمان بنصرة الله عباده المخلصين ، لا يعرف إلا الاقدام ، يتقدم الجيوش والمنية مشهرة سهامها . ذلك هو الأمير « ضرار بن الأزور الكندى » الشاب الحدث الذى ما أغنا غناءه بطل فى فتوح الشام إلا سيد القواد سيف الله خالداً .

وكان فى الغازيات اللائى كن يتبعن هذا الجيش ، كاعب عروب ، ذات جمال باهر ، وطرف فاتر ، خرجت فيمن خرجن من عقائل حمير تأسوا الجرحى ، وتعين على نصرة الحق . ولقد أبلت بلاء مشاوير الأبطال ، فكان هذا الغزال الغرير ينقلب الى أسد كاسر يصلى العدا ناراً حامية ، يروع القلوب ، وتجف من هوله الأفئدة ، ولم لا وهى إبنة « الأزور » ذلك البطل الذى قضى بين يدى المصطفى دفاعاً عنه ، وأخت ضرار صاحب فتوح الشام ؟ . . .

المسلمون يحاصرون دمشق وأهلها فى أشد الضيق ، وبينا المسلمون يكادون يظفرون بالقوم ، إذا هم برسول من قائد جند أجنادين ، يخبر خالداً أن الروم تجمعوا عليهم فى أجنادين فى عدد عديد ، فيشاور خالد أبا عبيدة فى ترك دمشق ، فلا يرى ذلك أبو عبيدة فيقول خالد « فأرى أن ترسل إليهم كتيبة عليها قائد دوب ، وأرى أن ترسل إليهم يا أمين الأمة رجلاً لا يخاف الموت أبداً ، خبيراً بلقاء الرجال ، قد مات أبوه فى القتال ، فقال أبو عبيدة ومن ذلك يا أبا سليمان ؟ قال هو ضرار بن الأزور بن طارق ، فقال أبو عبيدة لقد صدقت ووصفت رجلاً باذلاً معروفاً » (١) .

استدعى خالد ضراراً فقال له « يا ابن الأزور أريد أن أقدمك على خمسة آلاف ، قد باعوا أنفسهم من الله عز وجل

(١) فتوح الشام للواقدى

واختاروا دار البقاء والآخرة على الأولى ، فقال ضرار « وافرحتاه يا ابن الوليد ، ما دخل قلبي مسرة أعظم من هذه . ثم يسير ضرار على يمن الرحمن ، فلما بلغ أجنادين رأى جيش الروم ينحدر كأنه الجراد المنتشر ، وهم غائصون فى الدروع وقد أشرقت الشمس عليهم ، فلمعت دروعهم وخوذهم ، فقال أصحاب رسول الله لضرار ـــما لنا والله بهم حول ، فان هؤلاء جيش عرمرم ، وخير لنا أن نتقفل » فيكره ضرار ذلك القول ويقول « والله لا يرانى الله منهزماً ، ولن أزال أضرب بسيفى فى سبيله وأتبع سبيل من أناب إليه ، ولا أوليهم الدبر ، والله يقول (ولا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله) . . . » ثم تكلم رافع بن عميرة فقال « يا قوم اما نصركم الله فى مواطن كثيرة وأنتم قليلو العدد ؟ ألا أن النصر مقرون مع الصبر . ولم تزل طائفتنا تلقى الجموع الكثيرة ، فاتبعوا سبيل المؤمنين ، وتضرعوا الى رب العالمين ، وقولوا كما قال قوم طالوت ـــ(ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) . . » فيسترد القوم قواهم ويهللون ويكبرون (الله أكبر ، الله أكبر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر) .

التقى الجمعان وضرار يتقدم القوم وهو يرجز :

للموت حتى أين لى منه المفر وجنة الفردوس خير المستقر
هذا قتالى فاشهدوا يا من حضر وكل هذا فى رضا رب البشر

ثم اخترق القوم وحمل عليهم حملة نكراء فأحدقوا به ، فأخذ يستصرخ قومه ويقول : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » فيهجم المسلمون ويصيب ضراراً سهم فى عضده فيطمع الروم فيه ويحملون عليه فيأسروه . ويجىء خالداً الصريخ فيولى على جند دمشق ميسرة بن مسروق سيد بنى عبس ، ويتوجه بطليعة إلى أجنادين ، وكان بين جنده فارس على جواد فاره وبيده رمح طويلة ، قد تجلبب بجلابيب سود ، وتلثم حتى لا يرى منه إلا الحدق ، وكان يسبق القوم وخالد يعجب من أمره ، فلما أن أدرك خالد المسلمين فى أجنادين وجد هذا الفارس المتلثم يهبط على الروم كأنه النار المحرقة ، فزعزع الكتائب وحطم الأجناد . وكان يخترق قلب خميس الروم ، فما هى إلا جولة جائل حتى يخرج وسنانه ملطخ بالدماء ، وقد جندل رجالاً وصرع أبطالاً . ثم يعود فيخرق القوم ثانية معرضاً نفسه للهلاك والناس أمامه اما مصروع أو فارّ . وكثر قلق المسلمين عليه وهم لا يدرون من هو — وقد ظنه بعضهم خالد فما هى إلا جولات خالد — ولما رأوا خالداً بينهم سألوه عنه فقال أنا والله لأشد إنكاراً وتعجباً .

وما أن غابت الشمس ووقفت الحرب ، حتى أحدق القوم بهذا الفارس وفيهم خالد يسألونه عن اسمه فلا يجيب ، ثم ينتحى بخالد زاوية فيقول له : « ماسكت يا سيف الله حين سألتمونى عن اسمى إلا حياء منك لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الحجال ، وإنما حملنى على ذلك أنى محرقة الكبد ، زائدة الكمد . فقال : من أنت ؟ قالت : خولة بنت الأزور أخت ضرار أسير الروم ، أتانى آت بخبر أخى فركبت وفعلت مافعلت . » .

أشرقت الشمس فجدد المسلمون عزائمهم وكروا على القوم وحملوا حملة عظم أمرها على الروم ، وكانت خولة تجول فى كل مكان تطلب أخاها وهى لا ترى له أثراً ولا يراه أحد من المسلمين فيعم القوم حزن شديد وتبكيه بقولها : « يا ابن أمى ! ليت شعرى فى أى البيداء طرحوك ، أم بأى سنان طعنوك ، يا أخى ، أختك لك الفداء . . . ليت شعرى ، أترانى أراك بعدها أبداً ؟ فقد تركت فى قلب اختك جمرة لا يخمد لهيبها ولا يطفأ ، فعليك منى السلام إلى يوم اللقاء » . فبكى القوم وبكى خالد لحالها . وبينما المسلمون فى شدة واضطراب إذا هم بمن يخبرهم بأن الروم أخذوا ضراراً إلى صاحب حمص لينفذه إلى الملك ، ففرح خالد وتهلل وجهه ، وشكرت خولة الله ، فدعا خالد رافع بن عميرة الطائى لينفذه إلى حمص ، فسار خالد فى مئة منهم خولة ، فما وصل القوم قرب حمص حتى كمنوا ، فبينما هم كذلك إذا بنفر أقبلوا ، فنبه رافع قومه ، فلما قاربوهم كر عليهم رافع فاذا فيهم ضراراً فتجالد الفريقان حتى أنقذ ضرار ، فخرت خولة لله شكراً وشكر خالد لرافع بلاءه .

هذا موقف من مواقف بسالها الخالدات ، وما موقفها يوم أسر النساء فى يوم صحورا والناس يغزون الشام بالأمر الذى ينسى فقد ذكر الطبرى أنها أسرت فى فريق من نسوة حمير . فجمعتهن وخطبتهن تستحثهن على الثورة على هؤلاء الأعلاج ، وقالت « يا بنات حمير ، وبقية تبع ، أترضين لأنفسكن عاوج الروم ، وأن يكون أولادكن عبيداً لأهل الشرك ، فأين شجاعتكن التى تتحدث بها عنكن أحياء العرب ، ولا أراكن إلا بمعزل عن ذلك ، وإنى أرى القتل عليكن أهون من هذه المصائب ، وما نزل بكن من